لماذا يستهدفون تركيا

محمد يوسف عدس

ما أشبه اليوم بالبارحة: أليس من العجيب أن نرى أوربا والعالم الغربي بكل دوله قد تجمعت ضد تركيا أوردوغان تريد أن تحطّمها ، بل أن تمحوها من خريطة العالم ، وكأنها لم توجد ؛ وذلك دون ذنب جناه أردوغان ، ودون جريمة ارتكبتها تركيا في حق أحد سوى: أنها نجحت في تحقيق نهضة اقتصادية وسياسية لشعبها ، رفعت تركيا إلى مصاف العشرين دولة الأكثر تقدّمًا في العالم في غضون سنوات قليلة ، وتوشك أن ترتفع في سنوات أقل لتكون ضمن العشر دول الأولى في العالم ؛ كما يؤكد االخبراء الاقتصاديون.

فإذا قلّبنا صفحات التاريخ سنرى موقفًا ممثلا من القوى الأوربية ضد تركيا العثمانية ؛ فقد تكالبت أوروبا كلها ضد العثمانيين عسكريا وسياسيا وثقافيا .. وسوّد أعداؤها في الغرب المسيحي آلاف الصفحات بالافتراءات والأكاذيب عنها .. وكان من الواضح فى كلا الموقفين أن المقصود بهذا العداء والرغبة العارمة في التدمير والمحو ليست تركيا بحسبانها دولة من الدول ، وإنما لما مثّلته تركيا العثمانية كمظهر للحضارة الإسلامية المقتدرة ، ولِما يُخْشى من انبعاث حضارة إسلامية جديدة في تركيا الحديثة .. الإسلام إذن هو العدوّ العملاق الذى استهدفته أوربا في الماضي ، وهو العدو الخفي الذى تخشى أوربا والغرب من تجلياته المستقبلية..

كانت هذه الظاهرة واضحة أمامي كل الوضوح عندما شرعت في بحث وتدوين كتاب لى عن عبقرية الحضارة الإسلامية في الدولة العثمانية .. فقد هالنى حجم الأكاذيب والافتراءات التي وُجِّهت إلى الدولة العثمانية ومحاولت تشويه تاريخها .. وشيطنتها في نظر الرأي العام الأوربي ، واستنفار شعوبه لشن حرب ضارية تجتسها من أوربا أولا ثم تقوم بتنصيب وكيل عنها من الأتراك الموالين للغرب يقوم هو باستكمال مهمة القضاء على الإسلام وتصفية منابعه وآثاره في العقل التركي والأرض التركية على السواء ، وذلك كله تحت راية الإصلاح والتنوير .. وكان هذا هو دور "كمال أتاتورك"..

ولكن بدأت في أوروبا حركة معاصرة تعيد النظر في التاريخ العثماني وتَكشف عن الحقائق الصحيحة من الوثائق الرسمية التي كانت مستورة بعيدا عن أعين الباحثين.
ولقد اعتمدت في جانب من دراستي على كتابات بعض المؤرخين الأوربيين المنصفين وعلى الوثائق التي اكتشفوها ، وسجّلوها في مؤلفات منشورة ، أحدثت دويًّا هائلًا في الأوساط الأكاديمية وبين النخب المثقفة في أوربا وأمريكا .. وقد أجمع هؤلاء المؤرخون الكبار على ضرورة إعادة النظر في التاريخ العثماني ، لا إنصافًا للعثمانيين وإنما لإنصاف الحقيقة المدفونة تحت ركام الأكاذيب واحترامًا للعقل الأوربيّ والإنساني نفسه حتى لا يظل أسيرًا للخرافات ، يتغذّى على الافتراءات والكتابات الزائفة .. ومن أهم ما اتفقوا عليه أن التاريخ العثماني لا يمكن تعميم الحكم عليه ببعض الظواهر السلبيّة التي سادت في أواخر عصر الدولة العثمانية التي أصابها الفساد والتخلف .. فقد حكمت الدولة العثمانية قرونا قبل

ذلك كانت نموذجًا للسلطة الرشيدة العادلة ، وأحدثت ازدهارًا وتقدمًا وسلامًا في أوربا بين عناصر رعيتها على مبادئ العدالة والمساواة بلا عنصرية ولا تفريق بين السكان المسيحيين واليهود والمسلمين على السواء .. في الوقت الذى كانت أوربا المسيحية تتقاتل فيها الطوائف المسيحيةبعضها -مع بعض- قتالا شرسًا ، وتقوم فيها المجازر على أتفه الخلافات ، وكان الاقطاع الأوربي يسحق الإنسان ويعتبر الفلاحين والأرض معًا ضمن أملاكه الخاصة يتصرّف بهما كيف شاء.
لقد خلصت من دراستى ومقارناتي إلى هذه النتيجة الواضحة البسيطة وهي أن الحضارة التي أقيمت على أساس من الإسلام كانت بالفعل حضارة إنسانية عبقرية ؛ عبقرية بمبادئها الأخلاقية في العدل والتسامح.. عبقرية في نظرتها إلى الإنسان: من حيث أنه يتمتع بنفحةٍ إلهية تؤهلّه لأن يكون حرًّا مسئولاً عن اختياراته.. ومن حيث أنه مُكرَّم من قِبل خالقه فلاً يجوز إكراهه على اعتناق دين لا يريده "لا إكراه في الدين".. عبقرية في احتضانها لكل البشر على السواء لا فرق بين أبيض وأسود.. عربي أو أعجميّ.. مسلم أو غير مسلم..

لذلك لم يتورط أبناء الحضارة الإسلامية في كل العصور من استعباد الشعوب الأخرى أو إبادتها وانتهاب ثرواتها ، مثلما تورطت الحضارة الغربية، ذات النزعة العنصرية الاستعلائية.. فأبناء الحضارة الغربية ينظرون إلى الإنسان باعتباره مجرد مادة استعمالية.. تستخدمها حتى تستنزف طاقتها ثم تُلقى بها في صناديق القمامة.

أما الحضارة الإسلامية فتعبّرعن نفسها بقوة أخّاذة في كل عصورها التاريخية حتى في عصور ضعفها ووهنها.. والنماذج التي سأتناولها تدليلا على هذه الحقيقة لم أخْترها من فترات الازدهار والتوهّج والقوة، وإنما من عصور خفتت فيه روح اللغة العربية وكانت هي القالب اللغوي العبقري الذي استوعب الثقافة العربية الإسلامية وإبداعاتها في الفكر والفلسفة والعلوم بكل أصنافها .. وذلك إبّان فورتها وانطلاقتها العملاقة ..

ولتفسير ذلك أقول: لقد انتقلت السلطة الإسلامية إلى الأناضول على يد العثمانيين الذين لا يجيدون اللغة العربية وإنما يتحدثون باللغة التركية.. ومع ذلك بقيت سمات واضحة من روح الحضارة الإسلامية وجوهرها، متجذّرةً فى قلب النظام العثماني لعدة قرون.. فلما فتح العثمانيون شرق أوروبا وتركزوا في منطقة البلقان استطاعوا أن يقيموا حضارة إسلامية جديدة وأن يبنوا مُدناً جديدة وينشئوا مجتمعات على أساس من قيم العدل والمساواة في وقت كانت أوروبا كلها غارقة في الجهل، و ترزح تحت وطأة الظلم والفقر والقذارة..

كانت المناطق التي يحكمها العثمانيون تتمتع بالحرية والازدهار والنظافة وبحبوحة العيش، بينما كانت المناطق الأخرى ترزح تحت وطأة الإقطاع الأوروبي المستبد.. في ضيق العبودية والفقر والجهالة وظلمات العصور الوسطى..

أعلم أنني بالتطرُّق إلى هذا الموضوع إنما أخوض في طريق وعرة مليئة بحقول ألغام معرفيّة.. زرعها الكُتّاب الغربيون الحاقدون.. وتابعهم فيها الجُهَّال والإمّعات والعلمانيون الملاحدة من بني

جلدتنا.. وأعلم أيضاً أن ثقافتنا الموروثة قد اختزلت الأتراك العثمانيين إلى "كليشيهات" محفوظة تتردد في الأعمال المسرحية والسينمائية والتلفازية.. نسمعها على لسان شخص يمثّل رجلا تركيّا فظّا أو امرأة تركية متعجْرفة وهما يخاطبان المصريين بعبارت ركيكة النطق مكرورة: "فلاح .. خرْسيس .. أدبسيس .. يوك" .. هل تعرف شيئا أكثر عن الأتراك غير هذه االكلمات...!؟

يحلو لبعض الكتّاب والمؤرخين أن يثيروا حول مسلك الدولة العثمانية وحكمها في البلقان اتهامات أبعد ما تكون عن الصحة.. من هذه الاتهامات

١- أن العثمانيين فرضوا على الشعوب نظاما أجنبيا غريبا.
٢- وأنهم قمعوا الهوية القومية لهذه الشعوب.
٣- وأنهم جلبوا استيطانا تركيا كثيفا في هذه البلاد.
٤- وأنهم حوّلوا الفلاحين إلى عبيد.
٥- وأنهم فرضوا على المسيحيين قانون الشريعة الإسلامية.
٦- وفرضوا عليهم الإسلام بالقوة.
٧- وأدخلوا في قانون العقوبات ممارسات بربرية كبتر الأطراف وأعضاء الجسم الأخرى.

والحقيقة أن الدولة العثمانية لم تفرض نظاما أجنبيًّا كما يزعمون، وإنما على عكس من ذلك تماما ؛ فقد حافظت على كثير من قواعد الحياة الإدارية والاجتماعية التي كانت سائدة في البلاد المسيحية، وطورت بعضها إلى الأفضل بما يخدم مصالح الشعوب.

والكلام عن قمع الهوّيات القومية في ذلك الوقت كلام لا معنى له؛ ذلك لأن الفكرة القومية أو الهوية القومية لم تظهر (على الأخص في منطقة البلقان) إلا خلال القرن التاسع عشر.. ولكن الأتراك العثمانيين كانوا في موقع السيطرة على البلقان في منتصف القرن الخامس عشر، يعنى قبل ظهور القوميات بأربعة قرون على الأقل.
أما حكاية تحويل الفلاحين إلى عبيد فهذا بهتان لا نصيب له من الحقيقة ؛ والأمر –ببساطة- أن الفلاحين في أوروبا كلها – لم يكونوا أحرارًا تحت سيطرة الإقطاع الجائر، ولم يتحولوا إلى عبيد على يد العثمانيين، بل اكتسبوا في ظل الحكم العثماني حقوقا لم يحلموا بها من قبل، وكانوا يعاملون معاملة إنسانية أفضل بكثير من قرنائهم تحت نير الإقطاع الأوروبي.

فقد ذكر المؤرخون المنصفون أمثال "توماس أرنولد" أن الفلاحين الذين عانوا طويلًا من استبداد الإقطاعيين في المجر، كانوا يحرقون أكواخهم ويأخذون نساءهم وأطفالهم وأدواتهم الزراعية، ويفرون إلى المناطق التي كان يسيطر عليها العثمانيون المسلمون.. ليجدوا فيها حياة أفضل ومعاملة أرحم من معاملة الإقطاعيين المسيحيين.

أما موضوع فرض الدين الإسلامي على المسيحيين فقد كثر فيه كلام الأدعياء وخرج من إطار الحقيقة والموضوعية إلى مجال الكذب، وسوء تفسير الوقائع والأحداث وإثارة

الشبهات . توماس أرنولد المؤرخ البريطاني الشهير ألّف كتابًا كاملا عن انتشار الإسلام في العالم ، قرّرفيه ر بكل وضوح أنه لم يجد دليلا واحدًا ولا وثيقة محترمة تقول إن الإسلام انتشر في العالم بالقوة.. كذلك موضوع فرض الشريعة الإسلامية وقوانينها على المسيحيين، هذا الكلام لم يثبت بأي دليل تاريخي ، ذلك لأن النظام القانوني للعثمانيين كان نظاما مركبا، ولم تكن الأحكام الشرعية فيه إلا عنصرا واحدا من عناصره العديدة، وأوضح دليل على ذلك قانون السلطان سليمان .. يدعّم هذا أن الدولة العثمانية هي التي أنشأت "النظام المِليِّ" الذي ترك مسألة القضاء والأحكام الخاصة بالمسيحيين في يد رؤساء الكنائس يتصرفون فيها بحرية دون أدنى تدخل من الدولة.

وعلى كل حال كان قيام الدولة العثمانية ظاهرة طبيعية وصحية في كيان الأمة الإسلامية التي كانت لا تزال معرضة لتهديدات الغزو التتري من الشرق، والغزو الصليبي ضد المسلمين لم يزل حلمًا يراود القوى الأوروبية في الغرب.

وتلاحظ في تاريخ الدولة العثمانية من حيث علاقاتها الخارجية نزعتان بارزتان تبدوان لأول وهلة متناقضتين: نزعة توسعية إمبراطورية، ونزعة تسامح بالغة الوضوح، لاشك أنها تأثير إسلامي خالص.
لذلك لم يكن التمايز في نظامها الإداري بين مسلمين ومسيحيين وإنما انقسم الناس إلى فئتين وظيفيّتين: فئة الذين يقاتلون في الحروب، وفئة الذين يدفعون أجور هؤلاء المقاتلين، فأولئك الذين ينتمون إلى الآلة العسكرية للسلطان كانوا يعرفون باسم "العسكر".. وهو اسم لطبقة لا ترتبط بالضرورة بوظيفة عسكرية ، وإنما كانت تشمل كل من يمارس وظيفة أو سلطة مفوّضة من السلطان ، ولذلك شملت إلى جانب المقاتلين فئات القضاة، وموظفي الدولة بكل درجاتهم، بل ورجال الدين أيضاً مسلمين، ومسيحيين ويهود، وكان أعضاء هذه الطبقة مُعْفون جميعًا من دفع الضرائب، أما فئة دافعي الضرائب فكان يطلق عليهم اسم "الرعية" سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود.

ما لا يفهمه الكثيرون ممن يتناولون التاريخ العثماني بروح عدائية نتيجة الجهل أو الهوى: أن الدولة العثمانية كانت حريصة على إقامة العدل ، وكان القانون هو المرجع الأساس في العلاقات بين الرعية والحكام ، وستجد أن أبرزمثال على هذا هو "قانون السلطان سليمان" فهو أكمل وثيقة في القانون الجنائي العثماني الذى ساد في أرجاء الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الأولى في العالم لقرون طويلة .. ربما يرجع تاريخها إلى الفترة بين سنة ١٥٣٤م إلى سنة ١٥٤٥م.
فإذا قارنا بين هذا القانون العثماني وبين قانون "قيصر دوشان" الصربي المعاصر له في البلقان لوجدنا أن القوانين العثمانية كانت أكثر إنسانية وأبعد عن روح الطبقية العنصرية التي اتسمت بها القوانين الصربية ، ذلك رغم احتوائها على أحكام تبدو في ظهارها قاسية مثل عقوبة الإعدام لقطّاع الطرق، ووسم القوّادين، ومروّجي الفاحشة، وقطع اليد في جرائم

السرقات الكبرى، وكانت عقوبة الغرامة في بعض الجرائم الأخرى يتحمل فيها المسلمون ضعف عقوبة المسيحيين واليهود.

ويذكر المؤرخ "نويل مالكوم" أنه في القضايا بين المسلمين والمسيحيين كان المسلمون يشهدون أمام القاضي لصالح المسيحي إذا كان صاحب حق، وتلك دلالة لا يصح المرور عليها مرورا عابرا؛ لأنها تؤكد أن العدالة كانت حاضرة بقوة في ضمائر الناس بقدر ما كانت متحققة في القضاء، وهذا ما يدعّمه رأي أساتذة التاريخ الحديث في أوروبا، فهم يعتقدون – بناء على ما تجمع لديهم من شواهد، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أن القضاة العثمانيين كانوا يتمتعون بمستوى عالٍ من الضمير والعدالة، ويوافقون على مقولة المؤرخ الكوسوفى المولد "سيلالزيد صالح شلبى" (١٤٩٩ – ١٥٧٠) في وصفه لفترة حكم السلطان سليمان القانوني: "إن أبواب الظلم والعدوان قد أُغلقت بمسامير القانون".

يجب أن يكون واضحًا لنا هنا أننا نتحدث عن منظومة حاكمة لا مزاج فرد أو أفراد.. إننا نتحدّث عن سمات حضارة عبقرية تأبى إلّا أن تعبّر عن نفسها .. حتى فى قلب ما يسمّونه بظلمات العصور الوسطى الأوربية .. ثمّ قارن بين هذا الموقف الإنساني وبين العدالة فى "جوانتانامو و أبو غريب" ومواقف العنصريين العتاة: ترامب الأمريكي ولوبين الفرنسية من المسلمين والإسلام في أمريكا وفرنسا .. ونحن فى قلب القرن الواحد والعشرين ..!

ونتابع البحث في جولة لاحقة بمشيئة الله.

(نشر المقال في جريدة الشعب بتاريخ ٢٢ إبريل ٢٠١٧م)